وحدة المصطلح العلمي

بقلم الدكتور خير الدين حقي

عميد كلية الهندسة بحلب ووزير الصناعة حاليا بسورية

+ علينا أولا أن نستفيد من جميع امكانيات لغتنا ولا غضاضة بعدها في ادخال الاعجمي

+ لقد عربنا التعليم في جميع مراحله في الشرق العربي ، وكذلك الادارة وبهما ارتفعت سوية اللغة الدارجة أيضا الى حد قرب بين اللهجات في مختلف الاقطار .

علق في ذهني ما قاله أحدهم استطرادا لمحاضرة مقدمة لمؤتمر التعريب ومصدرة بعنوان « مشاكل التعريب» فنفى المعلق الكريم أن يكون للتعريب مشاكل وأوضح الخطوات التي اجتازتها الشعوب العربية في المشرق وعدد المصطلحات العلمية الضخم الذي تم الاتفاق عليه مما ذلل كل هذه الصعوبات ، كما المح الى الاعمال الجبارة التي تقوم بها المجامع اللغوية والاتحادات العلمية في هذا المضمار مما يمكن القول معه ، على حد تعبير الاخ المعلق انه لم يعد هناك ما يسمى بمشكلة التعريب .

ولكننا لو فتحنا أي كتاب من كتب الحساب المطبوع في المغرب (واعتقد أن صاحب مقال مشكلة التعريب هو مغربي) لوجدنا أن كلمات « مشكلة » في المغرب مرادفة لكلمة « مسالة » عندنا في الشرق العربي فليس لكلمة « مشكلة » هنا ذلك المعنى الثقيل الوزن الذي نعنيه هناك . ولو أن صاحب المقال صدر محاضرته بعنوان « مسائل التعريب » بدلا من « مشاكل التعريب » لكانت مرت هذه العبارة على أنظار المعلق الكريم دون أن تحدث في نفسه كل هذا التاثير وتحوجه لكل هذا الاسهاب والدفاع عن موضوع لم يكن كاتب المقال نفسه يقصده . فكلمة « مشكلة » خلقت «مشكلة » .

هذا ما نقصده من حديثنا الآن عن توحيد المصطلحات العلمية أن اللغة العربية كثيرة المفردات واختار كل شعب عربي اللفظ الذي يروق له فشعب يقول « ينبغي » وآخر يقول « نريد » وثالث يقول « نقصد » ورابع يقول « نروم » وهكذا حتى أصبحت الطبقات الشعبية في مختلف الاقاليم والمناطق لا تكاد تتفاهم بينما كلنا نتكلم اللغة العربية ونستقي من لغة فصيحة واحدة على ان المطلع على اللغة الفصحى يمكنه أن يفهم كل ناطق باللغة العربية وأن يرد الكلمات الى أصلها ولكن لا يمكن له مع ذلك أن يفهم مراده لغيره من عامة الناس الا اذا استعمل المتحدث الكلمات التي الف المخاطب استعمالها وكيف يتسنى له أن يعرفها لاول وهلة ؟

على أن هنالك أيضا كثيرا من الكلمات الشائعة جدا وقد تخفى حتى على المطلعين فيقال في المغرب «شرشب» وفي المشرق « شباك » وانني لم أفتش عن هذه ولا تلك في القواميس لاعرف الصحيحة منهما . ولكن يخيل لي ان شباك قد تكون من شبك وهو النافذة المحددة بقضبان الحديد وليست النافذة بشكل عام كما نطلق نحن هذا الاسم . وقد تكون « شرشب » هي الكلمة الصحيحة . ومن هنا يتطرق الشك الى نفسي ويجعلني مضطرا لاعادة النظر في كثير جدا من المفردات التي تلقنتها والتي لم اكن لافكر مطلقا أن الريب يمكن أن يتطرق اليها.

واذا كانت كلمة « شرشب » او كلمة « شباك » مما يرد كثيرا في علم الهندسة المدنية لدراسته ودراسة انشائه ومقاييسه وما يتبعه من عوارض ومصراعين وخشب وزجاج وغيره فان هذه الكلمة وهي كلمة علمية يجب أن نحدد معناها بالضبط وان نتفق على كلمة

صحيحة للدلالة على ما نقصده .

واذا تقرر هذا فأي شيء ليس علميا ؟ ان كل ما يقع عليه نظرنا من أشياء أو حيوانات أو نباتات هي علمية فان لم تدخل في علم تدخل في آخر وبقاء كثير من المسميات غامضة المفهوم أو متعددة الاسماء وان كانت كلها صحيحة فانها تخلق بلبلة في التعابير وهذه هي المشكلة فسموها مسالة أو مشكلة أو معضلة ، كما تحبون فهي على كل حال واقعة ويجب أن نجد لها حلا ولو لم تكن هناك مسالة أو مشكلة أو معضلة لما كان لوجود المجامع اللغوية ولا الاتحادات العلمية ولا حتى لاجتماعنا هذا أي معنى . فالقضية تحتاج لمعالجة على النحو الذى صورته وهي معروضة على مؤتمركم الكريم للنظر فيها.

أما اللغة العربية وقد استوعبت فيما مضى العلوم والمعارف وخدمت الحضارة فهذا ما لم نشك به .

وان اللغة العربية تتسع اليوم لكل المعاني العصرية فهذا ما لم نشك به أيضا .

وان التعريب ضروري لا مندوحة عنه في بلد عربي فهذا كذلك ما لم نشك به .

وما أعتقد أنه من الضروري البحث في هذه الموضوعات التي فرغنا منها وآمنا بها .

لا ينسب الضعف للغتنا الا الجاهل بها ، فلغة حوت عدة أسماء للشيء الواحد هي لغة غنية مخدومة . ولعلنا نعاني من اتساعها ووفرة مترادفاتها أكثر مما نعاني من ضيقها اذ خلقت لنا هذه السعة مشكلة تعدد اللهجات الدارجة التي هي أحيانا كثيرة لم تستعمل فيها المسميات في مواضعها الصحيحة ، وقد حان الوقت لضبطها وصبها في قوالبها السليمة . فان فعلنا فاننا سنقع على ثروة مذهلة ، نعم سنقع على ثروة مذهلة . فكثيرا ما اتفق لى اننى كنت ابحث عن ترجمة لكلمة أجنبية فحرت بين الكلمات التي تعطي المعنى الصحيح لها ، لان الدقة في الكلمات العربية بلغ حد الروعة فمثلا كتب عن ترجمة للكلمة الفرنسية étang فلم تكن هي بركة ولا بحرة ولا بحيرة ولا غور ولا هور ولا مستنقع ، وكل ما أعرفه من اللفظات في هذا المعنى لم يرضنى . ففتحت القاموس وفتشت فوقعت على أكثر من عشرين لفظا تحيرت بأي منها آخذ لدقة معانيها : فان تجمعت المياه في أرض صخرية فاسمها كذا وان في ارض ترابية فكذا وان كان ماؤها آسنا فهي كذا وان كان يخترقها جدول فهي كذا وان كانت تجف فهي كذا وان كانت ضحضاحة فهي كذا أو عميقة فهي كذا وكذا وهكذا . فأية ثروة هذه بين أيدينا ؟ وبالاضافة الى ذلك فان طرق النحت والاشتقاق والقياس والتشبيه وغيره من الوسائل التي ان أحسنا استخدامها زدنا في هذه الثروة الى حد كبير .

فعلينا أولا أن نستنفد جميع امكانيات لغتنا ولا غضاضة بعدها في ادخال الاعجمي فتلك سنة من سنن جميع اللغات اذ أن حياتها في الاخذ والعطاء كما قال أحد الزملاء وانا من المؤمنين بهذا . كما يجب ايضا عدم التواني لان عصرنا عصر الهندسة والاختراعات الى حد بعيد وفي كل يوم تدخل في حياتنا كلمات جديدة تستعملها الخاصة والعامة . فلا ينتظر مصلح السيارة مثلا أن نعطيه الكلمات العربية الصحيحة لاجزاء الآلة التي بين يديه بل يفرض علينا : الفرام والبستون والسليندر والصواب والكولاس والبطارية ... وغيرها فالى أن نعطيه مسمياتها العربية : الرادعة والمكبس والاسطوانة والصمام والغطاء والنضيدة تكون الكلمات التي ادخلتها العامة قد درجت واصبح من الصعب على الكلمات العربية ازاحتها .

ولو أننا ناخذ عن لغة أجنبية واحدة لهان الامر ولكن المصيبة ان كل قطر ياخذ بحكم ماضينا القريب عن اللغة الاجنبية التي كانت مفروضة عليه ، فتباعدت بذلك المفردات المستعملة في كثير مما نستعمله صباح مساء ، وبهذا تتجسم المعضلة مع مرور الايام ان لم نبادر لمعالجتها .

واصحاب الصحف والمجلات والاذاعات ومكاتب الاخبار هم أيضا يفرضون علينا أسماء كالقمر الصناعي والنفاثة والصاروخ والاشعاعات الذرية وغيرها الا أن خطر هذه الكلمات أقل لانها تعم فتشمل العالم العربي كله فلا يقع التباس في مفهومها ، كما أن واضعيها على سوية حسنة باللغة العربية والاجنبية على الاغلب .

لذلك يجب أن نولي عنايتنا للمتباينات من الالفاظ ونتفق على توحيدها فلا يكون للشيء الواحد الا اسم واحد ويستعمله كل عربي في أي جزء من اجزاء وطننا الكبير .

لقد عربنا التعليم في جميع مراحله في الشرق العربي وكذلك الادارة وبهما ارتفعت سوية اللغة الدارجة أيضا الى حد قرب بين اللهجات في مختلف الاقطار ، ولكن اشتغال كل قطر من ناحيته دون أن تكون بين العاملين رابطة أورثتنا ألفاظا متعددة للشيء الواحد فتجد في كتب مصر المدرسية «البندول» وفي سوريا «النواس» وفي الاردن «الرقاص» وفي لبنان «الخطار» وامثالها لاشياء اخرى كثيرة مما جعل قراءة كتب مصر في لبنان مربكة وكذلك كتب لبنان في العراق وهكذا . ولا حاجة للقول بان النتيجة الحتمية لهذا الوضع هي صعوبة

التفاهم باللغة العربية بين المثقفين في المؤتمرات العلمية أو حينما يراد القيام بعمل علمي مشترك بينهم ولذلك تراهم يستعينون بالالفاظ الاجنبية أحيانا اذا ما أرادوا دقة التعبير فيما اختلفت تسميته .

لا يعيب أحد علينا هذا التباين في المسميات ، بل على العكس أنني أرى في هذا التباين تاريخ جهاد رائع لامة لم ترض عن لغتها بديلا حينما كان الاستعمار يحرم على السوري أن يجتاز الحدود الى الاردن والاردني الى لبنان والمصري الى العراق ومع هذا فقد قام العرب في كل قطر يعملون . وقد عملوا واننا نبارك جهادهم .

على ان اليوم بعد أن أصبح لقاؤنا حرا يصبح من العار الابقاء على الوضع الراهن من التباين . واذا كانت مساعي الاتحادات العلمية ومجامع اللغة العربية تعمل جاهدة وقد أخرجت لنا عشرات الآلاف من الكلمات الصحيحة فاننا نامل ان تنتشر هذه الكلمات ويعم استعمالها في سائر بلادنا العربية .

من هذا العرض الذي أوضحته عن المصطلحات العلمية نرى باننا جميعا ما زلنا نعاني معضلة واحدة وان تفاوتت في الدرجات . فنحن في الشرق قطعنا النهر عند روافده الواحد تلو الآخر على مر سنين عدة فلم نشعر بالصعوبات التي يواجهها المغرب الآن الذي يحاول لحاق الركب بقطع النهر عند لجته بعد ان تجمعت كل روافده في المجرى الكبير فيقف أمام اللجة وفي نفسه شيء من التهيب ، ولا أغالي اذا قلت أن البعض يرى في عبور النهر دفعة واحدة من شاطيء لشاطيء مجازفة خطيرة .

والواقع أن هناك مشكلة لا ريب فيها وتخصنا جميعا ولكني لا أجاري الذين يريدون أن يجعلوا من الحبة قبة لان هذا يثنينا عن العمل ، كما انني لست من الذين يتصورون غور البحر الى الخلخال لان هذا يغرينا بالكسل . فالقضية على حقيقتها لا تتطلب أكثر من الايمان المقرون بالجد والعمل المشترك والدأب المتواصل كما تفعل كل أمة مؤمنة بكيانها . ولعلنا نحن ، كما أردد ذلك دائما ، أحوج ما نكون الى تعريب الفكر قبل تعريب اللسان ، أو كما قال أحد الزملاء بصيغة أدق : بحاجة الى تعريب الضمير قبل تعريب اللسان .

هذه هي الصورة الصادقة لاختلاف لهجاتنا واختلاف لغتنا العلمية وأسباب هذه الاختلافات وأخطارها ان استمرت ، فاذا لم نتعهدها بالعمل المشترك الذي يستهدف التوحيد العاجل في لغة المدرسة ولغة الدواوين ولغة الشارع ولغة البيت فاننا سنتباعد أكثر فأكثر .

واذا آمنا بلغتنا وآمنا بسؤددها فذلك لان فيها كرامتنا وتحرير افكارنا من السيطرة الاجنبية ومن التبعية ، ولان في سؤددها انطلاقنا كشعب واحد ، لا كافراد ، الى ذرى المعرفة والحضارة ، فسيادة اللغة العربية في البلاد العربية تدفع شبابنا الى التقاف العلم حيثما طاب لهم في جميع العالم وفي مختلف البلاد لا في بلد معين . ومتى حصلوا على هذه المعارف صبوها بعد هذا بلغتهم العربية السليمة الى من دونهم من افراد الشعب الذين سيفهمونهم وينتفعون وذلك أجدى وأقرب من تعليم الشعب كله لغة أجنبية معينة وجعل الشباب مكرهين أمام هذا على تعلم تلك اللغة دون سواها واقتصارهم على ثقافة تفرض عليهم فرضا ، وبالتالي الارتباط بعجلة الامة صاحبة هذه اللغة الى الابد والسير في ركابها وهو ما لا يليق بشعب حر هذا فضلا عما يقتضيه تعليم الشعب برمته ، هذه اللغة الغريبة عنه على حساب لغته من تكاليف يدفعها ليهدم بيديه اكبر مقومات شخصيته وهي لغته وليزعزع ثقته بنفسه وبكيانه . وهذا هو الموت المعنوي للشعب متى بلغ هذه المرتبة من التردي .

ان التعريب اذن في معناه الشامل الموحد بين جميع البلاد العربية هو عزة وكرامة وحضارة ومعرفة لكافة طبقات الامة . والابطاء به جريمة قومية وامتهان بحقوق المواطنين الذين يتطلعون الى حياة أفضل مبنية على أسس من ماضيهم ومن أنفسهم ومن وجدانهم .

وأما الوصول الى هذا الهدف فان جهودا مشكورة تقوم بها جميع الاقطار العربية في مجامع اللغة والاتحادات العلمية ومعاهد التعريب وعلماء وأساتذة يضيفون كل يوم أشياء جديدة ولا يعوزها الا التنسيق . والبحث عن التنسيق .